الحياة الطيّبة
السنة 21
العدد 36
شتاء- ربيع 2017 م
ملف العدد

فلسفة الهرمنيوطيقا وتأويليّة النصّ
-علاقة تعاند أم تواصل-

الشيخ شفيق جرادي[1]

خلاصة المقالة:

تتناول هذه المقالة بحث مسار الهرمنيوطيقا في حاضنة الفكر الغربيّ؛ بوصفها تيّارًا تنوّعت اتّجاهاته ومقاصده إلى أنْ استقرّ أو كاد يستقرّ على وظيفة فلسفيّة جديدة هي فهم الفهم، وتأثيراتها على العقل العربيّ والإسلاميّ عمومًا، وإسقاطاتها على التأويليّة الإسلاميّة، ثمّ بيان الفرق بينه وبين تأويليّة النصّ الدينيّ؛ فهل هما على نحو من الوفاق، أم إنّ العلاقة بينهما فيها من التغاير ما فيها من خصوصيّات ترتبط بطبيعة العقليّة والموضوع؟ ثمّ بيان علاقة تأويليّة النصّ الدينيّ بالفلسفة، والتوجّه نحو ربط تأويليّة النصّ القرآنيّ بتأويليّة نصّ المعصوم عليه السلام، والوقوف عند خصائص تأويليّة النصّ الدعائيّ عند المعصوم عليه السلام من خلال أنموذج أدعية الصحيفة السجّاديّة للإمام زين العابدين عليه السلام.

كلمات مفتاحيّة:

النصّ الدينيّ، النصّ القرآنيّ، نصّ المعصوم، النصّ الدعائيّ، الهرمنيوطيقا، التأويل، الفهم،...

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ ورئيس معهد المعارف الحكميّة للدراسات الدينيّة والفلسفيّة، من لبنان.

مقدّمة:

النصُّ هو عمدة الرسالة الإسلاميّة، وهو الكلام المُنزل من عند الله -سبحانه- على قلب الرسول ﷺ الذي تلقّاه ألفاظًا بحروفها، وآيات بكلماتها، وسورًا بمجمع آياتها؛ كما تلقّاه حقيقة كانت هي المنبع الذي لم ينضب في قول المعصوم عليه السلام وفعله وإقراره.

ومن هنا، لم تتوقّف التدبّرات ولا التحقيقات في معاني النصّ، أو في ظرف ومسالك فهمه ومعرفته؛ فنشأت -بموجب ذلك- التفاسير بمجاميع اتّجاهاتها ومدارسها، كما نشأت قواعد أصول العلوم والمناهج التفسيريّة والتحقيقيّة في النصّ.

ويمكن القول إنّ هذه الحصيلة من النتاج هي ثمرة تراكم وتفاعل بين إرشادات النصّ من جهة، وبين الحراك الفكريّ البشريّ من جهة أخرى. وهذا الحراك يأتي إمّا في إطار ما تولَّد عند المسلمين، وإمّا من ما استفادوه من شعوب وحضارات دخلوا فيها، ثمّ سعوا إلى إيجاد مواضع لها عندهم عبر تبيئتها واستثمارها. وهذا هو الجانب الذي وقعت فيه المشاجرات والجدالات، وتفرّعت بسببه تيّارات واتّجاهات بين مكفِّر لمن يقول بها، ومتَّهِم بالتخلّف والتحجّر لمن عارضها وناوأها.

وهذا المشهد الذي لطالما شهدناه، وما زلنا نشهده في تاريخ العلاقة بين النصّ والعلوم، إنّما يكشف عن أمرين مركزيّين:

- محوريّة النصّ في حياة المسلمين، وأصالة موقعه عندهم، وإجماعهم على أهمّيّته، حيث يكاد يُقطَع بأنّه حتّى النقديّون منهم لم يقلّلوا من أهمّيّة النصّ؛ وإنّما ذهبوا إلى طرق في معالجته قد توصل إلى شيءٍ من توهين النصّ، أو إلى التخوّف من تداعيات تؤثّر في أصالة القداسة ومصدر التجلّي في النصّ الإلهيّ وفي المعصوم. وثمّة فارقٌ هنا بين من لا يؤمن بالنصّ أصلًا، وبين من يتبنّى أمورًا تستلزم، عن قصد أو عن غير قصد، توهينًا أو افتراضات غير مناسبة في حقّ النصّ وسياقاته ومداليله.

- إنّ المرونة التي تتولّد عن الإسلام في ما يخصّ موقع الإنسان ودوره المعرفيّ والعلميّ، أصيلة وقويّة؛ حيث إنّ كلّ صادر من اجتهاد أو نقد أو تحقيق أو غيره... إنّما هو فرع أصالة المرونة الإسلاميّة في فهم العلاقة بين الثابت والمتغيّر في أطره ونطاقاته ومساراته، وبين ما هو إلهيّ وما هو بشريّ في حراكه وجدليّاته واستنباطاته التي يؤخذ بها ويعوَّل عليها، وبين حقيقة الباطن وحكم الظاهر في شؤون التشريع والمعرفة بتنوّعاتها النظريّة والعمليّة.

والجدليّة هنا، بين الأمر الأوّل: أصالة النصّ ومعياريّته، والأمر الثاني: المرونة الإسلاميّة وكونها نهج سلوك سُبُل السلام في الإسلام. واللّذان شكّلا قاعدة الارتكاز للتعبير الإنسانيّ عن جموحه المعرفيّ لفهم الدين وحقائقه، وللغوص والتدقيق في أصوله ومرتكزاته وأحكامه وقيمه. وكلّ ذلك على ارتكاز من العودة إلى النصّ، حيث كان كلّ البحث والتحقيق والكلام هو حول كيفية التعامل مع النصّ، لا حول عودته إليه!

وما السياق الأخير في البحث الفِسَاريّ، أو الهرمنيوطيقيّ، أو التأويليّ، على اختلافات التسمية عند الباحثين والدارسين من المسلمين وغيرهم، إلّا ذاك السياق التاريخيّ نفسه الذي أوردناه، وهو من صنف العقليّة نفسها في التعاطي الجدليّ بين ما هو إلهيّ وما هو بشريّ، بل حتّى ردّات الفعل والمشاجرات المتبادلة هي -بالأعمّ الأغلب- بين متّهم هنا بالضلالة، ومتّهم هناك بالتحجّر والتخلّف.

وعليه؛ كانت هذه المقالة مخصّصة لبحث تيار ألسنيّ وفلسفيّ أخير اصطُلح عليه بـ «الهرمنيوطيقا»؛ وهو تيارٌ تنوّعت اتّجاهاته ومقاصده إلى أن استقرّ أو كاد يستقرّ على وظيفة فلسفيّة جديدة هي فهم الفهم، ليشكّل حسب أصحابه، تحوّلًا في تاريخ التفلسف جاء بعد عصر الإبستمولوجيا، ثمّ بيان الفرق بينه وبين تأويليّة النصّ، وبيان علاقة تأويليّة النصّ بالفلسفة، والتوجّه نحو ربط تأويليّة النصّ القرآنيّ بتأويليّة نصّ المعصوم عليه السلام،

والوقوف عند خصائص تأويليّة النصّ الدعائيّ عند المعصوم عليه السلام من خلال أنموذج أدعية الصحيفة السجّاديّة للإمام زين العابدين عليه السلام.

أولًا: الفرق بين الهرمنيوطيقا والتأويل:

كان لهذا التيّار الهرمنيوطيقيّ قصّته مع رمزيّات الفنّ ودلالات النظريّات العلميّة والنصوص الأدبيّة والتاريخيّة -كعادة كثير من التحوّلات الفلسفيّة الغربيّة التي تأثّرت عميقًا بالتحوّلات الأدبيّة والفنيّة والعلميّة- إلّا أنّ قصّته هذه سعت إلى الاستفادة عميقًا من مدارس نقديّةٍ فلسفيّةٍ اجترحت قراءة المنظومات الفلسفيّة الكبرى من مثل: «الوجوديّة» و «الظاهراتيّة» و «الالتماعات النقديّة الكانطيّة» التي جعلت موضوعها كلّ فلسفة أو عقل تعليليّ، فصارت المنظومة هي الموضوع المبحوث فيه بعد أنْ كانت هي نظام معرفة الحقائق والعلل. وبذلك انتقلت الفلسفة من متن الواقع الخارجيّ، إلى متن واقع المعنى والقول والكلام والمنهج واللغة والنظريّة أو الأطروحة.

وهذا ما جرّأ بعض الهرمنيوطيقيّين للقول: إنّ الواقع هو العلم والفلسفة والأدب؛ إذ لا واقع مُدرَك خارج السيميائيّات والعلامات.

ومن هذه النافذة، لم يعد البحث في الأديـان بحثًا في حقائقها الميتافيزيقيّة؛ بل هو بحث في علامات تشير... وما الفلسفة أو العرفان والتشريع والأخلاق والكلام والعقائد والتفاسير إلّا علامات من قبيل الفنّ والعمران والآثار، وقبل كلّ ذلك «النصّ الدينيّ». ولهذا لا تأتي العلامات من داخلها؛ بل من خارجها الساعي إلى النفاذ إلى دلالة العلامات، أو دلالة الدلالات. وهذا ما نظّروا له بالمعرفة من الدرجة الثانية؛ تمييزًا لها عن النصّ نفسه أو العلامة نفسها التي هي معرفة من الداخل، أو معرفة من الدرجة الأولى.

إنّ هذا التقسيم يتيح لنا القول بالتمييز بين مصطلحين تمّ الخلط التعسّفي بينهما: الهرمنيوطيقا والتأويل؛ إذ التأويل نهج تطوريّ لحلقة

التفسير القرآنيّ أو الروائيّ، وهو أسلوب أو منهج للربط بين ظاهر النصّ وأفقه المعنائيّ المشير إلى حقيقة ما؛ إمّا بنحو الترابط شبه الذاتيّ بين واقع الظاهر وواقع باطن الحقيقة، وإمّا بنحو الترابط الإشاريّ بين اللفظ وحقيقة ما، قد لا تنتمي إلى ذات اللفظ... وهذا الاختلاف في المدارس التأويليّة على الرغم من تنوّعه؛ إلّا أنّه يجتمع عند انتماء واحد إلى المعرفة الداخليّة لحركة معرفة النصّ وحقيقته، حيث إنّ التأويل لا يخرج عن عالم النصّ الخاصّ؛ ولذا، ينبغي أن يتجانس مع النصّ ويخرج أو يتولّد من رحم قيمه وروح مصدره.

أمّا منهج الدرجة الثانية فهو من مَوْرد آخر، ولوظيفة أخرى، وبالتالي فالمشابهة بينه وبين التأويل لا تعني أنّه هو، بل هو غيره. ولذا ينبغي حفظ تسميته بالهرمنيوطيقا؛ منعًا للالتباس. فالهرمنيوطيقا تفهم النصّ هكذا؛ بخلاف التأويل والتفسير على ضوء ارتقاباتها وسجيّتها القيميّة التي غيّرت متن الواقع، وقلبت معادلة الحقائق واستفرغت وُسعها في استحكامها وتسيّدها على كلّ حقيقة.

وبشيءٍ من التدقيق، يمكن أنْ نلحظ أنّ الهرمنيوطيقا هي منهج في فهم أمرٍ ما... وتختلف مدارسها بحسب اختلاف طرق الفهم والمسلّمات المسبقة، أو الزوايا التي تفرض مداخل الموضوع. فالمركزيّة هي لمقصد الفهم وللحيثيّة أو القبليّة التي تنطلق المنهجيّة منها، وهي ليست للموضوع أو الحقيقة؛ بل لا مانع أخلاقيّ أو قيميّ أو منهجيّ من ممارسة فهم لأمرٍ لا يملي هذا الفهم.

وهذا الأمر يختلف عمّا عليه الحال في خصوص التأويليّة عند الحاضنة الإسلاميّة. فالتأويل هو إرجاعٌ لأمرٍ يمثّل حقيقة من حقائق الوجود، أو المصير الحياتيّ، أو المعنى...: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾[1].

(1) سورة الأعراف، الآية 53.

وعليه؛ فإنّ الاختلاف بين الهرمنيوطيقا والتأويل فيه بعدٌ من أبعاد فلسفة اللغة؛ إذ علينا معرفة موقع اللغة من الفكر ومن الوجود. ففي فلسفة اللغة عند الهرمنيوطيقا أنّ اللغة منبع ودلالة كلّ معنى، وأنّها طوت مرحلة فلسفة الوجود الميتافيزيقيّ، كما طوت فلسفة المعرفة والإبستمولوجيا. ولذا، فإنّ مقصد النصّ هو إحالتنا على فهمٍ ما، لا على مفهوم أو وجود وحقيقة وجوديّة. وهذا ما لا تتبنّاه مدرسة التأويليّة التي تعتبر أنّ بين اللغة والمفهوم، كما بين اللغة والوجود شيء يشبه علاقة الرقيقة والحقيقة؛ لما للّغة من وظيفة إيصاليّة نحو الحقيقة.

ثانيًا: العلاقة بين الفلسفة وتأويليّة النصّ:

إذا ما كانت الرؤية النظريّة تشكّل إسهامًا حسَّاسًا في بناء أو تبنّي المنهج الذي يعمل على إجراء العمليّات الاستكشافيّة أحيانًا، أو الإبداعيّة أحيانًا كثيرة، فإنّ اللازم يفرض أنْ ندرس طبيعة التناسب والانسجام بين الموضوع المبحوث فيه من جهة، والمنهج من جهةٍ أخرى. ولكشف مثل هذا التناسب تلعب الفلسفة دورًا بالغ الأهمّيّة.

ومن هنا؛ نجد العلاقة الوثيقة بين الفلسفة الإسلاميّة بتنوّع مدارسها وتأويليّة النص بتنوّع اتّجاهاته. وما مبحث الوجود الخارجيّ والذهنيّ، أو العلم والعالم والمعلوم الفلسفيّ -كما الأمثلة التي يتمّ طرحها في أبواب الفلسفة من خلال دراسة القضايا أو المعقولات الماهويّة، والثانية الفلسفيّة أو المنطقيّة- إلّا منابع ثريّة لبحث الصلة بين اللغة والوجود، أو اللغة والمفهوم. وهي مباحث أفضت، بالغالب الأعمّ، إلى إحالات للغة على حقائق الوجود أو الإدراكات ومراتبهما، الأمر الذي سمح بإيجاد أرضيّة مشتركة بينهما (اللغة والوجود) تقع عند «الكلمات»... فالكلمات، كما الكون المخلوق، آيات، والآية حقيقة وعلامة تشير إلى أصلٍ أو مبدأ هو مصدر الوجود وحقيقة الحقائق التي لا حقيقة مستقلّة غيرها.

ومن هذا المنطلق، نسبح مع اللغة عبر التأويليّة في بحر الكلمات التي

لا تنفذ، لنستكشف الارتباطات والمعاليل بين الأشياء، والحقائق، وبين عالم الكون وصِرْف الوجود. ونُبحر عميقًا فيها لنُبدع في بناء الذات والهويّة على محكّ التواصل والتغاير، ولنسلب عن وجه كلّ حقيقة الأسماء التي راكمناها نحن وآباؤنا، والتي لا تمّت إلى ذات الحقيقة أو إلى آثارها بصلة. ولنَثبُت من ثمّ عند الاسم بما هو قيمة جامعة لحقائق هذا الوجود والعالم.

ثالثًا: الارتباط بين تأويليّة النصّ القرآنيّ ونصّ المعصوم عليه السلام:

إنّ التأويليّة عمليّة استكشاف وحركة بناء للهويّة والانتماء والذات. ومن هنا، كان سرّها عند الله ورسوله صلى الله عليه وآله والذين آمنوا... لأنّها إبداع خلّاق، وإيغال في سَبْر الحُجُب لا ينقطع.

وإذا كانت الأبحاث قد تكاثرت في الآونة الأخيرة حول بحث النصّ القرآنيّ قراءة هرمنيوطيقيّة عملت على استبعاد القراءة التأويليّة، فإنّ استبعادًا ممنهجًا قد وقع في حقّ سلالة النصّ القرآنيّ؛ ومن ذلك «الدعاء». وهذا الإجراء حرمنا من التعرّف إلى تأثيرات النصّ القرآنيّ في صوغ كمالات الاستجابة الإنسانيّة. ولعلّ معرفة الاستجابة تمثّل وجهًا من وجوه معرفة النصّ القرآنيّ وفهمه في عينه.

وعليه؛ فإنّنا مدعوُّون إلى تطوير التأويليّة الإسلاميّة من خلال ربطها بعالم الدعاء، الأمر الذي يستدعي:

- أنْ نستكشف الخطاب الدعائيّ في نظامه العامّ ونسيجه المعرفيّ ضمن المقاصد والأهداف والمرتكزات واللغة الخاصّة.. ثمّ لنحقّق في أهمّ المفردات المفتاحيّة للدعاء. هذا، وإنْ كان الدعاء خطاب الإنسان إلى الله -سبحانه-، فهو ينبع من إيمانٍ يعبّر عنه الداعي عبر الأدعية، كما يُعبّر عن الوجدان والتجربة الإيمانيّين. واللافت، أنّ أمر كلّ دعاء يعود إلى هذه الحواريّة الخاصّة بين المؤمن وربِّه، علمًا أنَّه يكتسي خصوصيّته من خصوصيّة المعتقد ومفرداته.

- الربط بين خصوصيّة الدعاء والمسارات العامّة للتأويليّة الإسلاميّة، فلطالما تنعكس الآيات في وحدات دعائيّة؛ إمّا نصًّا، وإمّا تضمّنًا، وإمّا تفسيرًا. والأكثر إلفاتًا هو هذه التكامليّة في محضر المعنى بين الآية القرآنيّة والمقطع الحديثيّ والوحدة الدعائيّة؛ ما يُلقي علينا مهمّة البحث عن معاني الدعاء وأسراره، بل وبناءاته التربويّة والعباديّة والمعرفيّة في حراك التأويل الباحث عن المقصد، أو القائم عند الالتزام والانتماء.

رابعًا: تأويليّة النصّ الدعائيّ للمعصوم عليه السلام -الصحيفة السجاديّة أنموذجًا-:

تمثّل الصحيفة السجاديّة المصدر الأكثر ثراءً للأدعية الإسلاميّة، فهي نصٌّ صادر عن معصوم، هو الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، الذي عايش زمن النصّ القرآنيّ والنبويّ عن قرب شديد. كما إنّه عايش روح هذا النصّ بما هو حقيقة مودعة في قلوب أهل الكمال.

وقد عمل بعض المفسّرين على سَبْر معاني هذه الصحيفة، وتحليل أبعادها النحويّة واللغويّة والبلاغيّة، إلّا أنّهم لم يَردوا إليها مستنبشين قِوام خطابها وأنساقها وتراكيبها وتمازج المعاني والمؤثّرات فيها.

ونحن هنا، وإنْ كنّا نرجو أن نوفّق لمثل هذا الأمر، إلّا أنّنا لا ندّعي النجاح فيه. ولذا، فما سنقوم به هو إثارة بعض المقدّمات على طريق بحث التأويليّة الدُعائيّة في أنموذج الصحيفة السجاديّة.. عاملين على تسليط الضوء على جملة أمورٍ؛ منها:

- إنّ هذه الصحيفة الدُعائيّة تعكس روح المعنائيّة القرآنيّة على قلب أهل الإيمان. فهي بذلك تمثّل أحد الطرق التفسيريّة الوجدانيّة والتدبّريّة للقرآن الكريم. وهذا الوجه التدبّريّ للقرآن هو بمعنىً من المعاني تأويلٌ حكيم للكتاب العزيز. وعليه، فإنّها على أقلّ التقادير تُعطينا

انعكاسًا تراثيًّا لكيفيّة فهم القرآن. ومن المعلوم أنّ العمليّة التأويليّة في أحد أهمّ استهدافاتها إنّما تبتغي معرفة الأفق المعنائيّ للنصّ، والدعاء هو أحد النوافذ المركزيّة المطلّة على ذاك الأفق المعنائيّ للقرآن.

- حسب الفهم الإسلاميّ، فإنّ نصّ المعصوم عليه السلام هو صنو حقيقة النصّ القرآنيّ. ولذا، فإنّ اكتمالات النصّ القرآنيّ في دلالاته ومرجعيّاته وتطبيقاته وخاصيّاته؛ إنّما نحتاج في معرفتها إلى كلام المعصوم عليه السلام، والصحيفة هي من ذاك المنبع الخاصّ. ومن هنا، لا يصحّ أنْ ندخل في تأويلها خارج إطار النصّ القرآنيّ.
- حسب قواعد التأويل، فإنّ المتلقّي للنصّ والآثار الناتجة عن النصّ تمثّل أحد أهمّ الأسباب التي تربط فهمنا بمعنى النصّ. والإمام زين العابدين عليه السلام هو إنسان كامل (معصوم) يسترشد ويستهدي بالنصّ أحرفًا وإلهامات. وهو ببشريّته التي تتجلّى فيها الكلمات الإلهيّة يمثّل أصفى تعبير عن أثر المعنى وطبيعته، بل وزواياه التي قد تُخفَى عن غيره. ولذا، فإنّ اللازم أنْ نتعامل مع أدعية الصحيفة السجاديّة بما هي كاشفة عن حقيقة الحراك الروحيّ وتأثيرات الكلمات في وقائع الأنفس وتقلّبات القلوب.

هذا، وإنْ كان الفهم يستند -غالبًا- إلى البعد المعرفيّ ببعده المفاهيميّ، فإنّ دائرة الفهم الدينيّ الأوسع هو أنْ نستند إلى حال الذات الإنسانيّة التي تختلج مع الدعاء بكلّ ما فيها. وهذا ما يعطينا ربطًا لفهم النصّ بفهم الإنسان من حيث هو حال وحقيقة.

- لمّا كان الدعاء يمثّل مسير الروح من بطنان الأرض إلى عنان سماء الملكوت والمعنى، فإنّ فيه ربطًا بين عالمين من الوجود عبر اللغة؛ إلّا أنّها هذه المرّة لغة خاصّة، عُبِّر عنها بأنّها «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق». فما هي نسقيّة هذا الخطاب وما مكوِّناته؟ وما هي المداخل العلميّة والمعرفيّة والاستعدادات

النفسيّة والذهنيّة اللازمة للدخول فيه، من أجل مقاربته ولو بنحوٍ من تأويليّة أوّليّة؟

- إنّ من الاحتياجات الفعليّة لفهم أيّ خطاب: التوفّر على بؤرة المعنى فيه ومستويات العلاقة بين مجمل حركة النصّ وتفاصيله من جهة، وذاك المحور المركزيّ المسمّى ببؤرة المعنى من جهةٍ أخرى. فهل التوبة هي تلك البؤرة، أم إنّها التقوى؟ بمعنى: هل هي قيمة من القيم الإيمانيّة؟ وهل بؤرة المعنى هو الله -سبحانه- أم هو الإنسان بما هو تجلٍّ للإله؟ بمعنى: هل المحور هو مصدر الوجود ومقصد الخطاب الدعائيّ، أم إنّه مصدر الخطاب ومقصد الوجود؟ وما هي الأمور المترتّبة على أيٍّ من هذه التوجّهات المذكورة؟